قضايا الأدب والأدباء

بنت الشاطيء وأدب النقد

بقلم الدكتور محمد يوسف نجم

شئت بهذه المقالة ان أرد على الدكتوره بنت الشاطىء التي نشرت في الصفحة الادبية الاسبوعية لصحيفة الاهرام سلسلة من المقالات تناولت فيها بالنقد مجموعة الابحاث التي القيت في المؤتمر العاشر لهيئة الدراسات العربية في الجامعة الاميركية ببيروت ، وكنت أود لو أفسح المجال ليظهر الرد في الصفحة نفسها التي تصدر باشراف الكاتبة ، ولكن الذي حدث هو انها اكتفت بالاشارة الى المقالة اشارة عابرة في كلمة لها نشرت بالاهرام بعنوان « حرية الكلمة في المجال الادبي » ولعله كان اولى بحضرة الكاتبة ان تضرب صفحا عن مجرد الاشارة اليها من ان تظهر ضيقها بالنقد تحت ستارها بالدفاع عن حرية الكلمة .

وبما أن حضرة الكاتبة لم تجد في مقالتي الطويلة ما يجسم لها مسخ حرية النقد أكثر من بعض الالفاظ التي أوردتها بعد ان جردتها من سياقها العام فأنني أرى لزاما علي ان أرسل نص المقالة الكامل الى مجلة « الاداب » .

م.ي.ن

* *

نشرت السيدة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) في الاهرام تسع مقالات تناولت فيها بالنقد المتهكم والسخرية المرة كتابا صدر في بيروت عن هيئة الدراسات العربية التي أتشرف بالانتماء اليها . وقد خصتني السيدة الدكتورة بالمقال الاخير بعد ان تحفزت له وأخذت تشوق القراء الى ما ستقوله عني . وليس من حقي ان أدافع عن زملائي وكلهم كفي قادر يستطيع ان يبين للسيدة الفاضلة خطأها في التصور وشططها في النقد واسرافها في توزيع التهم والالقاب وفي نشر الشعارات الحماسية . ولكنني استأذن زملائي اعضاء هيئة الدراسات في الرد على ما جاء في مقالاتها التسع خاصا بالهيئة ، ثم أمضي الى الرد على ما تفضلت به علي من نقد .

اول ما يلفت النظر في هذه المقالات ان السيدة الناقدة تصورت هيئة الدراسات مؤسسة ذات سلطان قاهر تستطيع ان تفرض على الناس – ومنهم الدكتور عمر فروخ – ان يكتبوا ابحاثا معينة يتبنون موقفا خاصا تمليه الهيئة عليهم ولا بد ان يكون هذا الموقف منحرفا متحيزا لان الهيئة في بيروت وفي الجامعة الاميركية بالذات . الامر من الوضوح بحيث لا يحتاج الى بيان ، فلو تصورنا ان هذه الهيئة منظمة ارهابية تفرض آراءها بالقوة ، فما الذي يسوغ لنا ان نتصور ان الباحثين العرب – ومنهم المصري والسوري والعراقي والفلسطيني والاردني واللبناني – يمكن ان ينصاعوا لهذا التهديد ؟ ولكن الفكرة التي استولت على ذهن السيدة الباحثة ، والمجد الذي ارادت ان تحققه بنشر هذه المقالات ، كل ذلك جعلها تحاور وتداور وتفتعل القضايا وتنثر الاتهامات وترفع الشعارات ، شعارات لا أعلم انها رفعتها مخلصة في يوم من الايام. كنت انتظر من باحثة جامعية تعتز بجامعيتها وتكثر من الحديث عنها الى حد الاملال ، وتتولى منصبا خطيرا في التعليم وفي الصحافة ان تتريث في احكامها وان تحترم الزمالة وان تحسن الظن بالناس . فالنقد الحر ، وهي من النقاد الاحرار الذين يهاجمون المتنبي فيما أعلم ، لا يقوم على تلفيق التهم وتحوير الكلام وعلى سوء الظن بالناس . امور كنت أظن أنها منزهة عنها حتى تورطت فيما تورطت به ، وظنت انها بذلك تدافع عن لقب « أميرة الصحراء » الذي اختارته لنفسها او أختير لها في السعودية سنة ١٩٥١ . وليست لهجة الاستعداء والطعن في وطنية الزملاء الباحثين من النقد النزيه الحر في شيء . كان السيدة بنت الشاطىء لم تفد من نقد استاذها الكبير الدكتور طه حسين ، حين وقف اثناء مناقشة رسالتها للدكتوراه فأخذ عليها هجومها الشديد على المرحوم كامل كيلاني ، وقال لها : خير لك ولنا ان تنشري مثل هذا الكلام خارج الحرم الجامعي ، فهذا الحرم أقدس من ان ترمى فيه التهم والمهاترات دون وجه حق .

اما مؤتمر هيئة الدراسات ، فقد كان بوسع السيدة الفاضلة ان تسأل استاذها الدكتور طه حسين عنه ، فقد كان في يوم من الايام أحد المشاركين فيه ، وان تسأل استاذها وزميلها في رحلة « منظمة حرية الثقافة » الى رومة الدكتور ابراهيم بيومي مدكور ، وان تسأل الدكتور احمد زكي والدكتور عبد الحليم منتصر والدكتور مصطفى نظيف فكلهم شارك في هذا المؤتمر وعرف مدى السلطة الارهابية التي تملكها هيئة الدراسات العربية والتي تستطيع بها ان تفرض على كبار الباحثين ان يزيفوا آراءهم ويحوروا افكارهم ويبيعوا ضمائرهم لكي يحققوا اغراض الهيئة .

اما ما نسبته الى بعض الباحثين ، فلعل الماحة سريعة عنهم تظهر لك انك كنت على خطأ فيما ذهبت اليه فيه . فالدكتور صالح العلي من كبار اساتذة التاريخ في جامعة بغداد . وقد كلف بالبحث بعد ان اعتذر عن المضي فيه الدكتور ناصر الدين الاسد ، المختص في هذا الموضوع ، وذلك بسبب انشغاله بتنظيم كلية الاداب والتربية في الجامعة الليبية ، وضياع وقته في اكتشاف مؤامرات زملاء له كانوا هناك تحيزوا ضده كما يتحيز امثالهم في كل مكان حلوا فيه . وكان الدكتور العلي آنذاك يقيم في بيروت ، والدكتور احسان عباس ، وأظنك تعرفينه جيدا ، كان انذاك استاذا في جامعة الخرطوم ولم يكن له بالجامعة الاميركية أدنى علاقة . ووليد عرفات فلسطيني وكذلك انا ، وشكري فيصل سوري ، تعرفينه جيدا ، ولم يكن ينتظر ان تبلغ به دماثة الطبع وحياء القلم واللسان ، كما قلت ، مبلغ التنازل عن ذكر الحقيقة والاشادة بها . ولم نختره لنجعله في منطقة الظل بل لانه كان يدرس هذا الموضوع في الجامعة السورية ، ولعلك تذكرين محاضرته فيه ، في مؤتمر الادباء الذي عقد في الكويت .

اما الدكتور محمد كامل حسين فلم ترحميه ميتا كما لم ترحميه حيا. فقلت عنه « لا تعرف له الحياة الادبية تخصصا او خبرة بغير المكتبة الفاطمية » . فهل هذا عيب يرمى به الباحث حين نكلفه في بحث موضوع تخصص بدراسته ؟ ليت عندنا يا سيدتي عددا من هؤلاء المتخصصين او ليت حياتنا الدراسية قائمة على التخصص اذن لارتحنا من شغب المشاغبين وغرور المدعين . أعود للدكتور عمر فروخ ، قبلت ما زعمه من ان الموضوع فرض عليه فرضا ، ولذا آثرت الا تناقشيه . ولكن السبب لا يخفى علينا يا سيدتي فان الدكتور عمر فروخ لا يمكن ان ترميه بما رميت به الاخرين اذ انه لا يدرس في الجامعة الاميركية ، وله كتاب عن التبشير والاستعمار هاجم فيه هذه الجامعة ، اذن لا بد من التماس المعاذير الواهية لكي تتجنبيه حتى لا تنهار نظريتك فينا نحن الضالعين مع الاستعمار المتنكرين لعروبتنا . وليتك قرأت بحثه الاصلي الذي قدمه الى الهيئة . فقد كان كله هجوما على المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام وقد اتهمه – كما اتهمه سابقا – بسرقة نتائج ابحاثه . وهو لم يعدل في موضوعه ويستبعد تلك التهم الا نتيجة للنقد الشديد الذي وجه اليه اثناء مناقشة بحثه في المؤتمر .

اكتفي بهذه المقدمة فيما يختص بهيئة الدراسات وبزملائي

الباحثين وأتقدم الى الرد على ما جاء خاصا بي في مقالك الاخير .

* * *

لا أدري ما الذي اوحى اليك يا سيدتي انني صممت على ان أخرج من الشوط فارسا للحلبة او بطلا للسباق . فهذه امور اعتقد من الواجب الترفع عنها وخاصة في مجال البحث العلمي . ولكنك يا سيدتي فعلت معي كتلك التي ذكرها المثل : « رمتني بدائها وانسلت » . أحببت انت ان تخرجي فارسة ، ولذا استعملت ما يستعمله رعاة البقر من قرع الاجراس والصراخ واطلاق الشعارات وطعن الخصوم كل ذلك ليكتب اسمك في سجل الخالدين ، وأي خلود ، ولكي تسجلي انك اول من كشف نوايا هؤلاء (الخبثاء) الذين يعملون صنائع لهيئة الدراسات العربية ويروجون لمبادىء الاستعمار حتى في ميدان البحث العلمي . أرجو ان تكوني قد انتصرت . فان لم تنتصري بعد فبوسعنا ان نتجمل بالصبر وان نقرأ كتابك النفيس الذي وعدت به القراء في آخر مقالاتك .

تقولين : « فمن اللحظة الاولى بدأ فأخلي الميدان من كل الدارسين العرب في سورية والعراق وفلسطين والسودان وفي تونس والجزائر والمغرب واستبقى بضاعة مصر ولبنان لا غير كي يفرغ لها جهده وينطلق في الحلبة ملء عنانه » . ولو انك قرأت مقدمتي التي شرحت فيها منهجي لعلمت انني اتحدث عن « النقد النظري » باعتبار ان زملائي الاخرين تحدثوا عن النقد التطبيقي في مجال موضوعاتهم . ولادركت ان نقص المصادر والصحف والمجلات هو الذي حال دون ان أنصف تلك الاقطار لو وجد عندها شيء . ولو اطلعت على الفهارس الملحقة ببحثي لوجدت أنني أثبت ما ألف وكتب في النظرية الادبية وحسب . على أنني بعد ذلك أرجوك ان تذكري لي بحثا واحدا في النقد النظري في تلك الاقطار لم أذكره لكي أفيد من أدبك الجم وعلمك الغزير .

ورأيتك تطبعين بعض العبارات بالحبر الاسود وتردفينها بعلامات الاستفهام والتعجب لفتا للنظر . ومن تلك العبارات «الهلال الخصيب». يا للسذاجة ! أتظنين أنك وجهت الي طعنة مصمية حين أوحيت الى القارىء بأنني استعمل هذا الاصطلاح ، اذن فأنا من دعاة « الهلال الخصيب » ؟ أيمكنني ان اتهمك ، بالمنطق نفسه ، انك من دعاة الانفصال اذ لم تذكري الجمهورية العربية المتحدة مرة واحدة وكررت ذكر مصر وسورية ؟ تهم كنت أحب لك ، بما في نفسي لك من تقدير ، ان تترفعي عنها . فتوزيع التهم ليس من عمل الباحث الجامعي .

وأراك تشيرين باستهجان الى « المدرسة السورية المتمصرة » كأنك استكثرت عليها ان يكون لها دور في الادب العربي الحديث في مصر . اذا كانت الظنون قد ساورتك فارجعي الى ابحاثي في القصة والمسرحية والى دراسة الدكتور حامد محمود شوكت ، بل ارجعي الى الاهرام والمقتطف والهلال والضياء والزهور والجامعة لتدركي معنى ما قلت . ثم تستكثرين على المدرسة السورية المتمصرة ان يكون المنفلوطي من تلاميذها. وان يكون فرح انطون من اساتذته ؟ لقد اعترف هو بهذا الفضل حين قال:

« فارق مصر على أثر اعلان الدستور العثماني كثير من فضلاء السوريين بعدما عمروا هذه البلاد بفضائلهم ومآثرهم وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والاداب ولقنوا المطريين تلك الدروس العالية في الصحافة والتأليف والترجمة وبعدما كانوا بيننا سفراء خيرين بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية يأخذون من كمال الاولى ليتمموا ما نقص من الاخرى وبعدما علموا المصري كيف ينشط للعمل وكيف يجد ويجتهد في سبيل العيش وكيف يثبت ويتجلد في معركة الحياة » (النظرات ١ ــ ٢٨٦) .

واسأل ايضا لماذا كان المنفلوطي يرسل بنتاجه الى أدباء المهجر ليروا رأيهم فيه وأين تعرف الى فولتير وروسو وبرنار دان دي سان بيير وسواهم ؟ ان عدم تأثر المنفلوطي بهؤلاء الكتاب هو الذي يستهجن ، لا تأثره بهم . وهل يضير المنفلوطي ان يقال انه تلميذ فرح انطون ؟ انه شرف يا سيدتي كم تمنينا ان نكون من معاصري فرح انطون لنحظى به . وهل سمعت شهادات كبار كتاب العصر فيه ؟ شهادات سعد زغلول ولطفي جمعة والعقاد والدباغ وحافظ عوض والرافعي ؟ وهل يمكن ان نتجاهل فضل فرح انطون على الثقافة العربية المعاصرة ، ومقالاته في الحركة الوطنية في مصر ؟

ثم تلجأين الى تشويه كلامي على طريقة « لا تقربوا الصلاة » فتأتين بعبارات من فقرة تصورني للقارىء داعية لكرومر وللاحتلال . أليس عندك حس السخرية يا سيدتي ؟ ولاعد الى تلك الفقرة اثبتها بنصها لكي يدرك القارىء مدى عبثك بالنصوص وشدك لها من شعرها لكي تأتي وفقا لما أردت . أقول تحت عنوان « نشأة المدرسة الحديثة » :

« كانت الاحداث السياسية والثقافية والاجتماعية في مصر في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن تتجمع لاحداث انقلاب في الفكر المصري ظهر اثره بارزا في الادب والنقد . فالحرية النسبية التي وفرها كرومر للمطبوعات والاتفاق الودي بين فرنسة وانكترة سنة ١٩٠٤ وحادثة دنشواي سنة ١٩٠٦ كل هذه الاسباب مضافة الى مآثر الاحتلال الانجليزي منذ سنة ١٨٨٢ أدت الى نشوء عدد من الاحزاب المصرية سنة ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ . ومن أهمها الحزب الوطني الذي أنشأه مصطفى كامل » .

لا أعتقد ان قارئا ــ مهما كان سيىء النية ــ يمكنه ان يستنتج من كلامي تلك المعاني التي أردتها حين انتزعت تلك العبارات فقلت : « الحرية النسبية التي وفرها كرومر » بينما قلت أنا « الحرية النسبية التي وفرها كرومر للمطبوعات » ولا يمكن ان يستنتج الانسان بعد الاشارة الى الاتفاق الودي وحادثة دنشواي ونشأة الاحزاب الوطنية ان للاحتلال مآثر . كنت أسخر يا سيدتي ، أجل كنت أسخر وقد اتبعت كلامي في الاصل بثلاث نقط حذفها الطابع ، لسبب لا أعلمه . ولا أريد ان أتحدث عن نفسي وأعرفك بمعتقداتي السياسية فلا أظن أنني بحاجة الى تقديم حساب لك أنت بالذات فالذي يخدم عقيدة شريفة لا يدلل عليها في سوق النخاسة .

بقيت مسألة كرومر وحرية المطبوعات . هذه مسألة معروفة عند الباحثين ولانقل لك ما كتبه الاستاذ عمر الدسوقي وهو استاذ مصري في دار العلوم لا في الجامعة الاميركية ببيروت .

« والان وقبل ان أترك هذا الموضوع أرى لزاما علي وأنا أؤرخ لهذه الحقبة من الادب الحديث ، وقد ذكرت فيما سبق سيئات كرومر في التعليم ان أقول كلمة انصاف وأسجل هنا اثرا وحيدا من آثاره الا وهو حرية الصحافة في عهد الاحتلال او بعبارة أدق في عهد كرومر خاصة .

وإذا كان للورد كرومر من حسنات تذكر في هذا السبيل فأول هذه الحسنات واقواها اثرا في الادب هي اطلاقه الحرية التامة للمطبوعات وعلى الاخص الصحافة المصرية . فلم يكم أفواه الصحافة او يقيدها بقانون خاص وتركها للقانون العام » .

(في الادب الحديث ج ٢ : ٦٣ ــ ٦٤)

ولولا هذه الحرية النسبية لما كانت الاهرام والمؤيد واللواء وسواها من الصحف المصرية تهاجم الاحتلال بتلك الصراحة التي عرفت عنها في ذلك الحين .

اما المدرسة الانجليزية فأنني لم اسمها كذلك بل هي عرفت بهذا الاسم بين الباحثين تمييزا لها عن المدرسة الفرنسية (الذين تثقفوا بثقافة فرنسية) أمثال طه وهيكل ومنصور فهمي ومصطفى عبد الرازق وعلي طه ومطران وشيبوب . وقد اعترف العقاد بثقافته الانجليزية (شعراء مصر وبيئاتهم)واعترف شكري بذلك (الشعر والثقافة ــ المقتطف يوليو ١٩٣٩ ص ١٧٢ ــ ١٧٤) . على كل هذا من البدهيات ولا أظن ان قارئا من القراء يمكن حمله على انه دعوة للثقافة الانجليزية كما تصورت أنت .

اما ما قلته عن الجامعة الاهلية بمصر والذي أثار عجبك فأوردته على سبيل السخرية والتسفيه فقد أفدته من استاذنا الكبير الدكتور طه حسين ، واليك ما قال في مقدمة كتاب « في الادب الجاهلي » في هذا الموضوع بالذات ، يقول :

« كانت هذه هي الحال في مدارس الحكومة في اوائل هذا القرن وكانت الجامعة المصرية القديمة قد أخذت تغير هذا تغييرا قيما . فعنيت بالمذهبين النافعين في وقت واحد : عهدت الى المرحوم حفني ناصف

ثم الى المرحوم الشيخ مهدي بدرس الادب وعهدت الى الاستاذ جويدي ثم الاستاذ نلينو ثم الاستاذ فيبيت بدرس تاريخ الادب . فبينما كان الاولان يدرسان الادب ونصوصه المختلفة درس نقد وتحليل فيه حظ عظيم من العناية بالنحو والصرف واللغة والبيان فبيثان في نفوس الطلاب حب الادب العربي القديم والميل الى قراءته واستظهار الجيد من نصوصه المختلفة وينشئان فيهم الذوق وملكة الانشاء كان الاخرون يدرسون التاريخ الادبي بمناهجهم الغربية الحديثة فيعلمون الطلاب كيف يبحثون ويقارنون ويستنبطون . وكان كل الاسلوبين في الدرس يتم صاحبه ويقوي اثره ويكون للطالب مزاجا ادبيا علميا مستقيما خليقا ان يفسر حياة الادب العربي في شكلها وموضوعها كما يقول اصحاب القانون .

وكانت الجامعة المصرية القديمة خليقة ان تصل الى هذه النتيجة وتنتهي الى هذه الغاية لولا ان صدمتها الحرب الكبرى وأصابها العسر المالي ووقع الخلف بين أعضاء ادارتها وظهر فيها الميل الشديد الى الاقتصاد فعجزت طائفة او كارهة عن دعوة الاساتذة المستشرقين وأضافت درس تاريخ الاداب الى درس الاداب وكلفت المرحوم الشيخ مهدي ان ينهض بالامرين معا . ولم يكن المرحوم الشيخ مهدي مؤرخ آداب وانما كان رجلا أديبا يستطيع ان يقرأ القصيدة فيفهمها ويعين تلاميذه على فهمها يصيب هذا الفهم حينا ويخطئه حينا. ومهما أنس فلن انسى درسا سمعته من المرحوم الشيخ مهدي بعد ان عهد اليه بتاريخ الاداب . كان هذا الدرس في تاريخ الادب العربي في الاندلس وكنت حديث عهد بدروس الاستاذ نلينو وكنت حديث عهد بدروس الادب الفرنسي في فرنسا فلم أملك نفسي ولم أستطع ان أسيغ ما سمعت فخرجت من الدرس وما هي الا ان نشرت في احدى الصحف نقدا عنيفا غضب له الاستاذ وشكاني ..... » (الادب الجاهلي ٩ — ١٠) .

فهل اعتبر بعد قول الاستاذ الدكتور طه هذا مجاملا للمستشرقين ومتجنيا على الشيخ مهدي ؟

وتعجبين من قولي عن الدكتور طه حسين : « هذا تخطيط موجز للنقد عند طه حسين على ان فضله لا يقتصر على ما كتبه وحسب بل على الروح التي تختفي وراء ذلك كله ، روح الثائر المتحرر الذي يدعو الى تحكيم الشك في كل القضايا التي تتصل بالعلم وينادي بوجوب تطعيم ادبنا بأدب الغربيين ومناهجهم في دراسة الادب ونقده . وقد يتاح لنا في يوم من الايام ان نحكم على جهود طه حسين النقدية بالشطط وتجاوز القصد وقد ينبري البعض الى الكشف عن تأثراته بالدراسات الغربية ولكن كيفما دار الامر فلن يمحي من تاريخنا الثقافي الاثر الضخم الذي خلفه في تحرير العقول وتحريك النفوس والوقوف بشجاعة في ابداء الرأي والايمان العميق بالثقافة الغربية وخاصة الاغريقية والفرنسية يعينه على ذلك بلاغة مسترسلة وخلابة وموارية تضمن له الدولة والصولة في نفوس القراء والمريدين » .

هل تعتبرين ذلك غضا من منزلة الدكتور طه حسين وأثره في أدبنا العربي وكيف يكون الثناء ان لم يكن هذا ثناء ؟ وايم الله ان كل كاتب من كتابنا ليتمنى ان يقال فيه بعض ذلك ولكن ماذا نفعل بالعين التي لا ترى الا من خلال منظارها الخاص ؟

ولم يعجبك حديثي عن أحمد فارس الشدياق ومارون عبود والياس ابي شبكة ورئيف خوري ولا أستطيع ان أقنعك برأيي وأكتفي بأن أقول لك اقرأي اولا ثم احكمي .

وتقولين انني استرسلت في دق الاجراس لاعلام ذلك العصر العظيم المنتصر .... ولقد فاتني حقا ان أنعت هذا العصر بما نعته أنت فلك الشكر على تذكيري بقصوري ، على ان الذي جعل ابتسامة السخرية ترتسم على شفتي هو اشارتك الى سعيد عقل التي يفهم منها انني مدحته ومجدته ودققت له الاجراس . اذ أخذت من كلامي قولي : وسعيد عقل « داعية الرمزية وخطيبها » وعلى طريقة لا تقربوا الصلاة أيضا تركت الباقي ليأتي السرير على قدر الجسم ولتحققي نظريتك التي ظننت انك تبلغين بها مجدا . وسأقتبس كلامي عن سعيد عقل بنصه ليحكم القراء على التزوير الذي ارادته السيدة الفاضلة استغفر الله بل الدكتورة التي أتيحت منبرا تقف عليه لتقذف الناس بالتهم وتقولهم ما لم يقولوا ، قلت :

« ويبرز اسم سعيد عقل على الطرف المقابل فهو داعية الرمزية وخطيبها في تلك الابحاث النقدية القليلة التي كتبها ومن أهمها خطابه « كيف أفهم الشعر » الذي شرح فيه نظرية الوعي والموسيقى ثم اعاده ملخصا في مقدمة المجدلية . وقد تولى زميلي الدكتور انطوان كرم رد افكار سعيد عقل النقدية الى اصولها من كتابات الاب بريمون وفاليري وملارمه ولا أرى داعيا للتكرار فقد وفى الموضوع حقه . ولكن كلمة موجزة في نقده بل في مذهبه الشعري أحب أن أقولها . ان سعيد عقل عسر الخطة صعب المزاولة تستطير لبه النظريات والازياء الغربية فيتلو تلوها ويتدله في هواها يعنيه ان يسير معها على نهج سوي وعلى طريق لاحب. فهو رمزي تارة في النظر والتطبيق او رمزي نظرا كلاسيكي تطبيقا على مذهب فاليري او كلاسيكي محض راسيني المنزع والمتجه اذا أراد أن يجود على العرب « بمرسح » لم يعرفوه في ادبهم » .

فهل هذا مدح يا معشر القراء ؟ هل هذا دق اجراس وتمجيد ؟ يؤسفني ايتها الناقدة الفاضلة ان تشوهي كلامي للمرة الثانية او الثالثة او الرابعة لا ادري .

اما حديثي عن الاستاذ الشايب فقد سررت اشد السرور لانه اتاح لنا ان نسمع من السيدة الناقدة ثناء على الاستاذ الشايب لاول مرة في حياتها ، انه امر مستغرب دون شك . وما قلته انا يبقى حقيقة لم أقصد بها التجني على الاستاذ الشايب — وانا احترمه واجله — ولكن اردت ان أؤرخ فاذا اعوزك البرهان فاقرأي الكتب التي اشرت اليها . ثم الا يكفي ماأعتذرت به عن الاستاذ الشايب حين قلت :

« على ان ذلك لايصرفنا عن ان نعترف للمؤلف بفضل الريادة بصوغ بعض المصطلحات النقدية وبوضوح الاسلوب في هذا الموضوع الشائك الذي كثيرا ماتتعثر فيه الاساليب » .

لماذا اغمضت عينك عن هذه العبارات ؟ لا ادري .

اما ما قلته عن المرحوم الاستاذ احمد امين فقد ابت اخلاقه — وقد كان دوما خلوقا وانت اعلم الناس بذلك — الا ان يقرره بنفسه ويعترف بأثر المؤلفات الغربية فيه فقال في المقدمة :

« ثم اتجهت الى تاريخ الادب عند الافرنج والعرب فتتبعته في اصوله وقد تفضل الدكتور محمد النويهي الاستاذ في جامعة غردون بالخرطوم بترجمة بعض الفصول في تاريخ النقد الغربي فاستفدت منه واقتبست من ترجمته .. وقد يؤخذ علي في تاريخ النقد عند الافرنج اني اعتمدت في تاريخ حركة النقد وتاريخ النقاد ومذاهبهم ومزاياهم وعيوبهم على ما كتبه بعض المؤرخين الغربيين من غير رجوع بنفسي الى المصادر الاولى نفسها لاكون فيها رأيا خاصا اكون انا المسؤول عنه وهذا حق » .

هل ارمى بالتجني بعد هذا الاعتراف الكريم ؟ ثم نمضي في تصفح الكتاب فنجد انه من ص ١ — ٢٢٤ مأخوذ اخذا يكاد يكون حرفيا من كتاب هدسن « ارجعي الى الكتاب لتحكمي » وفي ص ٢٦٧ يذكر في الهامش ان تاريخ النقد عند الافرنج مقتبس من كتاب تاريخ النقد لسانتسبري ودائرة المعارف البريطانية وغيرهما . ويمضي هذا القسم من ص ٢٦٧ — ٤١٢ لم نر فيها للاستاذ رأيا . فهل تجنيت حين نقلت الى القارىء ما اعترف به الاستاذ الكريم رحمه الله .

وسكت ياسيدتي هنا عن ثنائي على محمد غنيمي هلال وسيد قطب وخلف الله ومصطفى سويف وشكري عياد ومحمد تيمور وكلهم مصريون فيما اعلم . سكت لان ذلك ينقض نظريتك . اعجب والله اشد العجب لهذه العين التي لاترى الا المعايب !

اما ماقلته عن الدكتور محمد مندور فقد شوه اشد التشويه ليحقق نظرية الدكتورة ، ولئن ساقني اسفي وحزني على ماتردى اليه هذا الناقد العظيم ، الى ذكر اسباب من حق التاريخ ان تذكر — ولولا ان استاذي الدكتور مندور اهتز لها وتأثر بفضل وشاية الإستاذ عبد الكريم الاشتر وتحريضه ، سامحه الله ، لما اسفت عليها — وقد كان واجبي كمؤرخ يفرض علي ان اشرح كيف انتهى هذا الاستاذ الكبير كما

يلتهي ابطال التراجيديات اليونانية . واقتبس هنا ماقلته عن الدكتور مندور لاحكم القارىء فيه بعد ان اعلنت اعتذاري عما ظنه الدكتور مندور اساءة ، مع انني لم اقصدها وهو يعلم ذلك . قلت : « ص ٣٥٦ – ٣٥٨ » .

« يفتتح الدكتور محمد مندور صفحة جديدة ناصعة في تاريخ النقد العربي الحديث ، لو لم تسودها السياسة ويعبث بها المرض والحاجة ، لغدت من انصع الصفحات في تاريخنا الادبي .

تخرج مندور من قسم اللغة العربية في الجامعة الجديدة في الفرقة الاولى سنة ١٩٢٩ ، ثم ارسل في بعثة الى فرنسة امتدت مايقرب من تسع سنوات عاد بعدها الى مصر سنة ١٩٣٩ ، لا يحمل شهادة كزملائه ، ولكنه يحمل في صدره ثقافة عميقة في الادب الكلاسيكي والادب الاوروبي واضطر الى ان يعود الى الكلية طالبا ، وبعد رسالة للدكتوراه عن « اتجاهات النقد الادبي في القرن الرابع الهجري » ، ويحصل على الدكتوراه سنة ١٩٤٣ ، لكي يعين مدرسا في جامعة الاسكندرية ، ولكنه سرعان مايستقيل من الوظيفة وينصرف الى المهن الحرة ، فيشتغل بالمحاماة والصحافة .

وتنقسم حياته النقدية الى ثلاثة اطوار ، الطور الاول من سنة ١٩٤٢ – ١٩٤٥ والثاني ١٩٤٥ – ١٩٥٣ والثالث منذ ١٩٥٣ حتى اليوم .

كان في الطور الاول ناقدا حصيفا ينبعث من حدود علمه وذوقه ويعتبر النقد بالنسبة اليه رسالة حياة ، ولذا يبدأ معاركه النقدية بمراجعة المقاييس السائدة . وقد جمع مقالاته الاولى في كتاب « في الميزان الجديد » الذي يعتبر بدء مرحلة جديدة في النقد ، قائمة على الثقافة العميقة الشاملة ، والذوق المرهف المهذب ، والاخلاص المتصل، والعمل الجاد .

وقد بسط مندور منهجه في النقد الذي دعاه بالمنهج الفقهي في مقدمة ذلك الكتاب ، وفي فصلين هما « مناهج النقد – تطبيقها على ابي العلاء » و « المعرفة والنقد – المنهج الفقهي » وهو قائم على فن دراسة النصوص وتمييز الاساليب ، دراسة تسندها المعرفة والعلم ، فهو يقول مع استاذه لانسون « ان مانستطيع ان نأخذه عن العلماء هو النزعة الى استطلاع المعرفة والامانة العقلية القاسية والصبر الدؤوب والخضوع للواقع والاستعصاء على التصديق ، تصديقنا لانفسنا وتصديقنا للغير ثم الحاجة المستمرة الى النقد والمراجعة والتحقيق » . وتمييز بين الاساليب ، مستند الى ذوق مرهف مثقف مستنير ، خالط الاثار الادبية قديمها وحديثها ، واهتز معها وتقبلها بروح حانية .

وقد اخذ مندور يبشر بهذا المنهج منذ عودته من فرنسة ، وكانت الفترة الارجوانية في حياته هي ١٩٤٣ – ١٩٤٥ . بعد ذلك التفت الى السياسة وانغمس فيها ، وشارك في نشاط الطليعة الوفدية ، التي كانت تعتنق اليسارية لمحاربة حكم السعديين . وقد كانت هذه الفترة فترة ركود بالنسبة اليه ، لن نتخدع ونقول معه انها كانت فترة تجربة وممارسة اتيح له فيها ان يضع نظرياته الثقافية موضع المراجعة والاختبار . وكان من ثمرات هذه الفترة العجفاء كتاب جمع فيه محاضراته في النقد التي كان يلقيها على طلاب المعهد العالي للفنون المسرحية وسماه « في النقد والادب » وهو اقرب الى الملخصات والحواشي منه الى الكتب المؤلفة بعناية وتؤدة .

وفي اواخر سنة ١٩٥٣ ، انشىء معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، ووقع اختيار المسؤولين فيه على الدكتور محمد مندور ليكون محاضرا . فعاد مندور الى الادب وقد هاضه المرض وارهقته السياسة ، وحملته ضرورات العيش على ان يقبل كل عمل يوكل اليه ، فانسمت ابحاثه في هذه الفترة بالسرعة والنقل والمجازفة في الاداء وبالسمعة التي تعب في بنائها . وقد جمعت محاضراته في المعهد في كتب منها « ابراهيم المازني » و « خليل مطران » و « مسرحيات شوقي » و « الشعر المصري بعد شوقي » و « في الادب ومذاهبه » و « المسرحية الشعرية بعد شوقي » و « ولي الدين يكن » . وجاءت الصحافة الادبية ضفثا على ابالة فهو يكتب في المجلات الاسبوعية والشهرية وفي الصفحات الادبية من الصحف اليومية ويحاضر في قسم الصحافة بكلية الاداب وفي معهد التمثيل ومعهد الدراسات العربية العالية ، كل ذلك فرضته عليه مطالب العيش والشعور بدنو الاجل واجبال القريحة وتعطل القدرة الذي استولى عليه بعد المرض .

بقي ان نميز في نقد مندور بين موقفين ، الموقف النظري الذي انصرف فيه الى نظريات النقد ، ونقد النقاد ، وقد استنفد اكثر جهوده، واشهد انه صدر فيه عن ثقافة عميقة شاملة ، والنقد التطبيقي ، الذي حمل عليه حملا فيما ارى ، بحكم عمله في معهد الدراسات العربية ، هو نقد محمول عن طريقته يتسم في الاكثر بالسرعة والتصفح وعدم الاتزان . واذا كان لنا ان نحكم على قيمة الناقد من خلال ما حققه في نقده التطبيقي فمندور في نظري لم يرتفع بنقده هذا الى المستوى الذي بشر به في النظريات التي بثها في اول حياته النقدية . وما يزال مندور عندما يضطر الى دراسة كاتب او شاعر ينكفيء على كتبه او يتكيء على ذلك الرصيد النظري الضخم الذي جمعه في مطلع حياته الثقافية ، فنراه ينحرف ، لاوهى الاسباب الى الحديث النظري في الشعر او القصة او المسرح او مذاهب الادب عمل المتعلم الريض والمتأدب الناشيء . وسبب ذلك فيما ارى ، هو ان مرحلة النضج التطبيقي في حياته كانت سريعة ميتسرة ، وكم كنا نتمنى ان يستمر في التدريس الجامعي المنظم ليتاح لهذه النظريات التي اختزنها ان تتفتح وتستحصد بتؤدة وتعقل . ولكنه ذهب ضحية طموحه ، ذاك الطموح الذي اغراه بالعمل السياسي ، وقيده بالصحافة ، وساقه الى السجن في يوم من الايام . »

اما ما قلته عن الدكتورة سهير ، وانا اجلها واحترم ادبها وتهذيبها فلم يكن تهجما كما ارادته السيدة عائشة عبد الرحمن . واشعر هنا انها انما اعادت كلامي لتستغله في الذم في معرض الدفاع. ولا يضير الدكتورة سهير الا تكون استاذة للغة العربية ، ولا يضيرها الا تكون استاذة نقد ، وهي قاصة مبدعة وباحثة متأنية ومترجمة انيقة الاسلوب . وكل ميسر لما خلق له . ولا يطلب من السيدة بنت الشاطىء مثلا ان تكون شاعرة او كاتبة مسرحية وهي مفسرة تحسن التفسير ودارسة وكاتبة تراجم ورحلات . ولم يقل احد ان طه حسين ليس استاذا كبيرا لانه لم يدرس النقد في الجامعة ولا قال احد ان احمد امين لم يترك في تاريخنا الثقافي اثرا بعيدا لانه لم يحسن تدريس النقد في الجامعة . واذا كانت السيدة بنت الشاطىء تظن ان حديثي عن مندور وسهير تهجم على الاشخاص فانني اقول لها « العفو » . الم تتهمينا بالخيانة الوطنية وبيع الضمائر وتحريف الحقائق وسوء النية لاننا اساتذة في الجامعة الاميركية ؟

اما فيما يتصل بالنقد الماركسي فقد كفت الكاتبة نفسها مؤونة التخبط في موضوع لاتعرفه كما قالت واستعدت علي الكتاب الماركسيين، وانا بانتظار تصحيحهم لاخطائي لكي افيد منه .

كتابان خطيران

عارنا في الجزائر — لجان بول سارتر

الجلادون — لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الآداب

اعود الى لهجة البحث والالقاب والشعارات التي استعملتها الاستاذة الناقدة . فاطمئنها الى ان تحريضها هذا لن يجديها نفعا حتى في مصر. فلكل مكانته في عالمنا العربي وقارئنا ليس من البساطة التي افترضتها السيدة عائشة عبد الرحمن فيه ، حتى يصدق ماقالت وبوسعه ان يقرأ الكتاب وان يقرأ ماكتبت ليكشف التزوير والعبث بالنصوص ، وليعلم ان السيدة الباحثة ادركت منذ البداية ان مصير مقالاتها الاخفاق ان لم تلجأ الى الافتئات علينا وتقويلنا ما لم نقل ولذا عمدت الى ماعمدت اليه.

وبعد فلي سؤال احب ان اوجهه الى ضميرك الذي لا اشك انه مازال حيا : الم تجدي في جميع هذه الابحاث وفي الجهود التي بذلت فيها ما هو جدير ببعض الثناء ؟ اكانت تلك الابحاث كلها خطأ وتهافتا حتى انك لم تجودي على فكرة واحدة في اي منها بعبارة ثناء ؟

استودعك الله راجيا ان تسرعي في اصدار هذا الكتاب الذي وعدتنا به ليكون لنا معك موقف اخر نصحح فيه المقاييس ، محترمين الاخلاق والقيم ، دون ان نلجأ الى طعن الناس في وطنيتهم وعقائدهم لتحقيق غاية في نفس يعقوب وانا لمنتظرون .

محمد يوسف نجم

« الاداب » بين النقد والحقد

بقلم : حسن احمد حسان

لعل من البديهيات والتي لايكاد يختلف فيها اثنان ، ان القارىء العربي في هذه الاونة قد صار على درجة من الوعي والادراك الواسعين. وهو بالتالي لاينقبل كل ماتقع عليه عيناه من مجلات ومؤلفات ، ولكنه يقرأها بأناة وروية ويعمل فيها فكره ومن ثم يستطيع التفريق بين غثها وسمينها بل وفي بعض الاحايين قد ينقد مايقرأ بفهم واستبصار حسب درجة ثقافته واطلاعه .

ولا مراء ايضا ان المطابع في هذه الاونة في نشاط مستمر واسع وهي لاتني تقذف بالكثير من المؤلفات والمجلات الادبية وغير الادبية ، مما جعل القارىء يركض في سباق مع الزمن ومع هذه المطبوعات التي تنهال عليه من كل اتجاه ، ولذلك ومهما كان القارىء نهما في اطلاعه فان زمنه المحدود الوجيز صار لايسعفه ويتيح له الاطلاع على كل ذلك السيل المنهمر ، ومن ثم فانه يلجأ ـ ولا مفر له من ذلك ـ الى التنقيب عن مايعتقده ويراه اكثر صلاحية ونفعا لقراءاته واطلاعاته حتى يتسنى له السير في رحاب الركب الثقافي حسب مقدرته واستطاعته .

ولهذه الاسباب وغيرها فان لنا معشر القراء المواظبين ثقات لاتحد في بعض مانقرأ من مجلات .. والتي نحس تماما بانها تحترم عقول قرائها كل الاحترام ولا تدخر وسعا في تقديم ارقى النتائج اليهم سواء في مضمار الشعر او القصة ، الابحاث او النقد وغير ذلك من فنون الادب ، وتقف في طليعة تلك المجلات النظيفة وما أقلها ، مجلة الاداب والتي نعلم تماما انها في مدى عمرها الذي يربو على العشر سنوات لم تأل جهدا في ربط أجزاء هذا الوطن العربي برباط ثقافي ووطني رفيعين وصارت بمثابة برلمان ثقافي ويساهم في تغذيتها مختلف الادباء العرب .

ولذلك فاننا نشعر بأسى لافح وبألم عميق عندما نرى هجوما محموما يتناول مجلة نظيفة لها بين جوانحنا كل احترام ومودة . ولو كان ذلك الهجوم عابرا لما اوليناه اهتماما ولاعتبرناه ضريبة النجاح العابرة والتي لابد ان يكابدها الناجحون ، ولكن مع الاسف ان ذلك الهجوم العجيب اخذ يتكرر في اوقات متقاربة وفي كل مرة يزداد حقدا لسنا نعرف له سببا ومن اديب يتوخى النزاهة والنقد البناني في كتاباته كما يزعم .

فمنذ فترة كتب السيد منير صالح ، وهو اديب له مكانته بين ادبائنا السودانيين ، مقالة في احدى الصحف المحلية وبعد ان مصمص حضرته شفتيه متحسرا على الادب وايام الادب التي ولت مع الرسالة والثقافة والرواية ، قال فيما قال « تذكرت هذا وتحسرت بعد ان اجلت الطرف هنا وهناك فلم اجد الا ادبا ضحلا في الصحف العربية التي ترد الينا « كالاداب » وسواها وما يرد من مجلة صباح الخير وغيرها من شعر وادب ، فهي مجال لكل مدع أثيم .. وبها شعر ونثر لاتسمح بنشره صحفنا المحلية لانه دون المستوى ، وعجبت للمتعجبين الذين يرون في هذه الصحف مشاعل للنور وهي مجال خصب للسارقين ، وهي مجال لنشر الجهل من شعر منثور اسميه الشعر الخبيث ، شعر يفتقر الى كل المقومات الادبية والفنية ويحتاج الى عناصر الابداع واللغة والخيال فهو خبيث القصد سيء الاتجاه . صرنا نقرأ لعبد الصبور وامثال عبد الصبور نقرأ لهم عمر زهران في « خده شامه وفي يده علامه » ونقرأ لغيره قصيدة طويلة لاتخرج منها الا بامثال « لكنما وعندما وليتما وبينما » لاشيء يربط بين هذه المساءات » الخ ..

هذا بعض ماكتبه السيد الاديب ودأب على ترديده من حين لاخر ، وقد كان في الامكان صرف النظر عنه واعتباره كلاما عائما غير مركز وبالتالي يستحق الاهمال ، ولكن في بعض الاحيان قد يقرأ احدنا شيئا فيثير القيظ والاعصاب ولا يستطيع ان يهمله ويتركه حتى لو اراد ذلك ، لما فيه من مغالطات وتحريضات تطلق جزافا وبلا ضابط او رابط اطلاقا .

ومن تلك المغالطات او التحريفات « المنيرية » ادخاله مجلة صباح الخير في زمرة المجلات الادبية ومقارنة مايكتب فيها بالاداب وغيرها ، فهل هي كذلك ؟.. ام هي مجلة لها طابعها واسلوبها الخاص وبالتالي يصير ادخالها ومقارنتها بالمجلات الادبية عبثا في عبث ؟ ويقول « انها ـ اي تلك المجلات ـ صارت مجالا خصبا للسارقين ، ولقد كان بودنا لو دلنا الاستاذ مشكورا على تلك السرقات وما هي ، اليس ذلك اجدى بدلا من اطلاق الكلام هكذا على عواهنه ، ام ان هذه طريقة جديدة في النقد وذلك بان نهاجم ونثم دون ان ندعم كلامنا ببراهين او اسانيد ؟

واننا ولا شك نشارك الاستاذ في تحسره على اختفاء مجلات ادبية كالرسالة والثقافة وغيرهما ، ولكن في نفس الوقت لدينا سؤال ويا حبذا لو حاول السيد الكاتب ان يوجهه الى نفسه بدلا من هذا التحسر الذي لن يجدي شيئا بطبيعة الحال . والسؤال هو ، لماذا ياترى اختفت تلك المجلات والتي حملت مشعل الثقافة والفكر لامد طويل ؟.. والجواب في رأينا ـ ومع احترامنا لمن يهمهم الامر ـ يكمن في ان تلك المجلات قد انفصلت عن واقع قارئها العربي الذي اصبح بدرجة من الوعي لايستهان بها .. وكان بالتالي ينتظر منها ومن كتابها الافاضل مشاركته في آماله وآلامه وان ينيروا امامه الطريق الى امانيه الوطنية والقومية، ولكن تلك المجلات لم تفعل شيئا من ذلك وكانت النتيجة الحتمية ان انفصل عنها قراؤها لانها انفصلت عنهم ومن ثم تهاوت الواحدة اثر الاخرى .

واما هجوم الاستاذ على الشعر الحر ووصفه له بالشعر الخبيث السيىء وغير ذلك من النعوت ، فهذا شيء ليس بالجديد ، وقد دأب على ترديده حتى مله القارىء . حقيقة ان هناك شعرا رديئا كمثل هذر مجلة « شعر » وغيرها .. ولكن من الظلم والاجحاف ان يرمى الشعر الحر كله بالرداءة والضحالة لمجرد ان بعض الادعياء يكتبونه . وللاستاذ منير ايضا طريقة عجيبة في نقده للشعر الحر فهو يقرأ القصيدة او الديوان كله ثم يمسك بتلابيب بيت مسكين واحد ويوسعه نقدا وتجريحا ثم يخلص الى ان الشعر الحر كله رديء لانفع منه ، وهل ياترى اذا اتبعنا هذه الطريقة العجيبة في نقدنا لشعر منير ـ وهو نفسه شاعر ـ وأمسكنا ببيت واحد من شعره ثم خلصنا الى ان شعره كله رديء لان له بيتا لايعجبنا ، ترى هل يقبل ذلك ويوافق عليه ؟؟ نترك الجواب للاديب نفسه . وهل هكذا ينقد الشعر ؟؟.

واخيرا فان لنا الرجاء البسيط للاستاذ منير وهو ان يحترم عقول قرائه والا يطلق حديثه جزافا والا فليسكت وله منا الف شكر .

بور سودان

حسن احمد حسان